تمهيد

«دجلة» نهر وحيد الوجهة، على عكس «النيل» الذي في وسع المرء أن ينحدر فيه مدفوعاً بالتيّار أو يصعّد حسب مشيئة الأشرعة. ففي «بلاد ما بين النهرين» تنساب الرياح، شأنها شأن المياه، من الجبل إلى البحر، ولا تفعل ذلك قطّ باتّجاه الأراضي الداخلية، حتى لتُضطّر المراكب إلى التباطؤ تبعاً لمشية الحمير أو البغال التي ستقطرُها في طريق العودة إلى مربطها هياكلَ مترجرجة مرتبكة على الدروب الجافّة.

وفي أقصى الشّمال، حيث منبعه، ينحدر «دجلة» الجَموح بين الصخور، والوحيدون الذين يجسرون على امتطائه هم بضعة نوتيّة من الأرمن وعيونهم شاخصة إلى فَوَران الماء المُخادِع. وإنه لشريان عجيب لا يتلاقى فيه العابرون ولا يتجاوز بعضهم بعضاً ولا يتبادلون التمنّيات ولا الحُمولات. ومن هنا كان الشعور المُسْكِر بأن يُبحر المرء وحيداً، من غير عفريت حارس ولا مواكبة غير مواكبة النخيل على الضفاف.

وإذ يبلغ «دجلةُ» (المدائنَ) عاصمة بلاد (بابل) ومقرّ الملوك «البارتيين» فإنه يصبح وديعاً ويستطيع الناس الاقتراب منه بلا حذر، ولا يعود سوى ذراعٍ عملاقة مائعة تُعْبَر من جُرُف إلى جُرُف في قُفَفٍ مدوّرة مسطّحة القعر يتكدّس